قصة قصيرة

مسيرة إيمان وإرادة

صبحة بغورة *

قصة قصيرة

لطالما شعرت بأنها طفلة مختلفة. تبدو واثقة أكثر من باقي أترابها في ثبات خطواتها، كبرت عزيزة النفس لا تحب التأخر أو الغياب في المواقف الجادة، غدها ليس ضبابا ولا صورة من هباء، هي الأيام تعاندها حينا وتقسو عليها أحيانا أخرى، ويوقظها الطيف إن ضلت الطريق إلى أحلامها الطفولية البريئة، ويرسم لها الليل الطويل صورا تداعبها على عتبات ذلك المجهول القادم إليها تراه يحط رحاله على قدرها، وهي الأنثى المفعمة بالنشاط والأمل الممزوج بالألم، لكن ذلك الحلم بعد الرحيل الطويل أكيد سيستقر لتفتح له الأبواب لبداية الانطلاق إلى عالم مازالت تراه حلما، بين تلافيف الذاكرة أحلام محلقة بعيون الصباح في المدى المزين بأكاليل الورود، التي يذوب في كف مساءاتها التي تعدها بغد جميل تعانق فيه وجه القمر، وسط تلك المزارع النائية فتمتلئ من ضيائه وتبتسم مغنية لطيور الفجر.

كان تفكير إيمان الطفولي مليئا بالأسئلة، التي غالبا ما تعجز عن إيجاد إجابتها، فتطفئ حيرتها بدمع لامع، تثري بصمتها كلام يتكسر بين مرايا وقع الفقر والحاجة، ولا تزال ترقب ذلك القادم المجهول لربما يمسح عنها غبار الشقاء، كعصفورة حائرة، حاملة قلقها من برد المساءات التي تمضي ولا تأتي بجديد. يمتد السكون كأن غيمة حطت على حبل الوريد، ترسم حكايتها بالكلمات لهيبا في المدار، وصمت البيوت التي تقمع حلم كل أنثى تطمح للعلا، ولكن كلما ارتقى حلمها وارتفع على واقعها يسحبها إلى رصيف مرصع بالأمنيات المجمدة، لكن بإيمانها تراه يأتي في الربيع ويذيب ما علا أحلامها من ثلوج عنيدة، وهي تنطلق معها نحو حلمها الأبدي.

كانت إيمان تنتمي إلى عائلة كثيرة الأفراد، ولم يكن والدها قادرا على إعالتها لصعوبة الحياة الريفية وانعدام الأمل فلم يكن يمتلك عملا دائما، وكانت إيمان الابنة الكبرى لهذه العائلة، فشحذت همتها لتساعد والدها، وأخذت مرة تبيع المواد البلاستيكية التي تجمعها من

---

* كاتبة وصحفية جزائرية

الحاويات لإعادة تدويرها، وتارة أخرى تبيع خبز الدار على قارعة الطريق الرئيسي للسيارات، ولم تكشف مسيرة حياتها التفاصيل مثل بائعة الخبز للكاتب الفرنسي كزافيه دومونتبان، ولا بائعة الكبريت للأديب الدانماركي هانس كرستيان أندرسن، فهي طفلة مثابرة، تفرح بفستان جميل يحضره والدها لأيام العيد بألوانه الزاهية، هي لا تبحث عن الموضة ولا تتابع أحدث بيوت الأزياء، المهم فستان تعكس ألوانه أحلامها الوردية.

كل صباح. اعتادت إيمان الذهاب إلى مدرستها البعيدة سيرا على الأقدام، وفي الطرق الطينية يثقل حذاءها البالي بالوحل، والأمطار تبلل قدميها الصغيرتين، والصقيع يجرح وجهها حتى تكاد لا تقوى على مسك قلمها بيدها، دون أن تنفخ فيها كي تتدفأ بحرارة زفيرها، عاشت تعاند قسوة برد الشتاء ولهيب الصيف الذي أحرق وجهها، ولم يهمها هذا الأمر قدر رغبتها في مساعدة والديها في حمل شيء من عبء مسؤولية البيت وتخفيف المعاناة ولو بقدر ضئيل، فالفقر والحاجة جعلت منها أنثى صلبة، قوية قوة الرجال وكقوة الطبيعة وقسوتها، محاولة كسر رتابة الأشياء المحيطة بها ومحو غصة تستوطن أحلامها، ولما كبرت صار أكثر ضيقا وأفظع مما كان متوقعا، من الصعب أن يجد الإنسان الاختيار الذي يبحث عنه وإن يجتهد من أجله، ويركض قبل أن تتسلل الخيبة إلى قبله وتحاصره كي لا يصل إلى غده المنتظر، يهرب لكن الحصار يعود ويضيق عليه فتعود إليه مجبرة وقلبها، يتراجع من الظلام إلى الظلام، وقلبها لم يعد يقبل الحطام كبقية البنات في سنها، فقد أصبحت ترى درب الدراسة ما زال طويلا ولا يحل مشكلتها ولا مشاكل عائلتها أو يوفر لهم الحياة الكريمة، ولن تحقق ما تحلم به، كمن يدور في حلقة فارغة، تتبعت نداء قلبها وعقلها معا وهي مقتنعة بهذا الاختيار الذي وجدته حلا مناسبا في غياب كل الحلول الأخرى، وهو ما يعني خلاصها من رمادية الحياة التي عاشتها، والتي كانت ستقضي على ألوان دنياها الجميلة، لو أنها فقدت أملها الذي هو سر صمودها، فبعض الأمور تتطلب التضحية والاجتهاد والصبر حتى يبزغ بصيص الأمل .

كانت إيمان تحب ممارسة الرياضة خلال تواجدها بالمدرسة الإعدادية، وتنال فيها العلامة الكاملة، مما أثار انتباه استاذ التربية الرياضية نشاطها وخفتها وسرعة حركاتها، حيث أصبحت حديث القاعات الرياضية في تلك المدينة البعيدة جدا عن قريتها، ويوما ما نقل إليها أحد زملائها في الدراسة عرضا من أحد مدربي الملاكمة للانضمام إلى فريق الملاكمة بالقاعة وستنال مقابلا

ماليا كل حصة تدريبية، كان العرض مغريا وأخبرت به والدها فضحك اشفاقا عليها من أن يتهشم أنفها!. . لكنه لم يمانع، وفي الغد ذهبت والتقت بهذا المدرب فسلمها مبلغا من المال لتحضر نفسها وتقدم ملفا كاملا لإدارة القاعة، وفرحت إيمان بالمبلغ وعلى قلته رأته كبيرا يكفي لشراء مقلمة لأدواتها المدرسية التي كانت تضيعها في كل مرة.

كل ما أرادته إيمان، هو الظهور بشكل لائق أمام زميلاتها، دون أن تكلف والدها أعباء إضافية، ووالدها يشجعها على مواصلة الدراسة والنجاح لنيل شهادة البكالوريا، أما والدتها فكانت تريدها ناجحة في أي مجال دراسي أو رياضي، المهم أن تكون ابنتها ناجحة في حياتها، لكن والدها بقي ممتعضا من غيابها عن البيت للتدريب وعودتها المتأخرة إلى المنزل ليلا، فأهل القرية محافظون جدا والألسنة الطويلة لا ترحم. وبعد أن استلمت النقود من مدربها تغيبت مرة أخرى، وأمام إصرار مدربها على عودتها التقاها وأعطاها بدلة رياضية وأصر أن تبدأ التدريب معه، وتنبأ لها بأنها ستكون يوما ما بطلة أوليمبية، لم تفهم إيمان ما المقصود ببطلة أوليمبية، ولما كان من الصعب أن تستمر إيمان في التدريب بالقاعة البعيدة التي تنتقل إليها سيرا عادت إلى بيع خبز الدار على الطريق لتوفر المال اللازم لتذكرة الحافلة والتكفل بمصاريفها، فوالدها لا يعمل عملا منتظما ودخله غير ثابت، وكانت تعاني الحرمان الكبير، يعلم أهل قريتها أنها تمارس أعمالا ليست مناسبة لعمرها، وكانت محاربة قوية يثني عليها الجميع إذ ما تحملته يفوق بكثير ما يتحمله الرجال، وأصبحت الأنثى التي يضرب بها المثل في التحدي والإصرار.

أخيرا تركت إيمان مقاعد الدراسة مضطرة لإعالة أسرتها، ومعها وجدت فرصة للتفرغ للرياضة وقتا أطول، وبعد مرور بضعة أشهر من التدريب، خاضت أول تجربة أول منازلة رسمية لها وهي واثقة من نجاحها، كانت ابتسامتها تجعل الخريف ربيعا، والليل المظلم صباحا مشرقا، تدرك أن الأيام لسعت الجميع وأن ابتسامتها دواء لكل داء، تحيا دون أن تلحق أو تتسبب بالضرر لأي إنسان ولا حتى بكلمة أو فعل أو سوء الظن، تعي جيدا قيمة أن تقدم يد العون لمن هم بحاجتها، متسلحة بالهدوء والتعقل الذي لا يعكر سكينتها، كما تجيد احتواء مشاعرها التعيسة وابتلاع أحزانها واستبدالها بالمشاعر السعيدة.

في غمار تدريباتها، أخبرها المدرب بأنه تم ترشيحها، لخوض منافسات البطولة الوطنية للملاكمة صنف أواسط والتي ستنظم في مدينة أخرى، كانت أول مرة تسافر خارج مدينتها

بدون أسرتها، وهناك التقت لأول مرة مع إحدى المشاركات التي خاضت من قبل بطولة العالم، الجميع كانوا يشككون في إمكانية فوزها في المنازلة، وكانت المفاجأة حين فازت إيمان على منافستها بفارق كبير في النقاط، حينها أدركت إيمان أنها على أبواب المجد وأصبحت بطلة وطنية بجدارة، بالرغم من الظروف التي ما انفكت تعاندها مرة أخرى، لأن نجاحها العفوي بفضل موهبتها الشخصية، لم يشفع لها كي تتجنب ظروفا ترتبت منذ ولادتها في عائلة فقيرة، ونشأتها في محيط منغلق على نفسه، لكنها لم تستسلم للألم والفشل، ولم تضيع الوقت الثمين ولم تفقد ثقتها بنفسها، فهي تعي أن بضع سنوات قليلة من العمل الدؤوب والسعي المستمر كفيل بتغيير الحظ، إنها تؤمن كل الإيمان بأن كل من يعمل بجد وثبات ولا يجعل للتشاؤم سبيلا إلى نفسه سينجح، إرادتها تولد في نفسها مزيدا من دفق الثقة التي لا تعني بالضرورة عندها الاعتقاد بامتلاك الموهبة فحسب، بل تؤمن بأن يتقبل المرء حالته الحاضرة كما هي ويحاول تحسينها ورفع مستواها، وما من شك إنه سينجح إذا وضع هدف تحقيق النجاح نصب عينيه، وبذلك كان نجاحها الأول كبطلة وطنية صغيرة رغم جهلها لأمور كثيرة في الحياة.

أخيرا بدا لها طيف النجاح، الذي حفزها على الاستمرار فضاعفت التدريبات حتى في ساعات الليل، ورحبت بها عمتها ببيتها القريب من قاعة الملاكمة، وصار زوج عمتها سندها في المدينة البعيدة عن قريتها النائية، قررت إيمان الاستقرار عندها ومواصلة دراستها بالثانوية، عاشت مكتفية بالمبلغ الذي تتقاضاه بما جنته بعد فوزها بالبطولة الوطنية وقسمته بين لوازم دراستها وتدريبها الرياضي، كانت هذه الظروف مرحلة انتقالية بعدما صار لها راتب شهري إذ تمكنت من تقليص فارق المستوى الاجتماعي بينها وبين زميلاتها، ثم انطلقت بكل جد واجتهاد، في رحلة حياتها تستمد لحظات الفرح الجميلة، لتدفعها إلى الأمام مودعة واقع ماضيها المرير وذكرياتها الحزينة، التي ظلت هاجسا يؤرقها بالليل ويزعجها بالنهار، تلك الذكريات المتقلبة كانت تشعرها دوما بعدم الاطمئنان، حين عاشت الأجواء التعيسة والأنواء والشقاء، فتعلمت منذ صغرها من تجاربها في الحياة أن لا الفرح يبقى ولا الحزن يدوم، وما عليها إلاّ اتخاذ قراراتها بنفسها دون أن يؤدي بها إلى الندم، تستمد حكمتها في التصرف من ذكرياتها الحزينة حتى وإن لم ترجح كفة الذكريات السعيدة، وموقنة أن الجمال والأمل والغنى والصحة كلها مسائل نسبية تتفاوت فيها الأحكام من حال إلى حال، وقد يبلغ بها الحال إلى الضحك حد البكاء أو البكاء حد الضحك.

توالت بطولات إيمان بأدائها المميز والقوي داخل الوطن، تسع بطولات متتالية جعلتها تنتقل إلى التحضير للبطولة الإفريقية، تمكنت من نيل الميدالية الذهبية، ظلت في تطور مستمر معتمدة على نفسها حتى نظمت لها الدولة الدورات التدريبية خارج الوطن التي مثلت لها قفزة عملاقة نقلتها من قريتها الصغيرة إلى أسفار عبر دول العالم الذي بدا لها أوسع مما كانت تتخيله. كانت أحلامها من قبل مرهونة بعدد الخبز الذي تبيعه، والآن تشعر أن الحياة تبتسم لها بكل الألوان التي تمنتها واشتهتها لتلوين قلبها الحزين، فالبقاء على ساحة الحلم روعة وجمال، وحسها النقي و إصرارها على النجاح هو حلاوة الروح وبراءة البياض عندما تسافر بحلمها إلى أقاصي النجوم المتوهجة بالحنين والشوق، و في كل مرة إلى ارتفاع راية وطنها خفاقة في الأعالي مكتملة بكل عناصر الحب والوفاء للأرض التي ولدت بها إنه وطنها الجزائر، لونها ومزاجها وطقوسها على أرضه هو الشعور الدافئ الذي يراودها وهي تتأمل الوان الراية التي تعلو بالشعور المتجدد كالمطر والضوء والعطر، إنه يحفزها ويذلل أمامها الصعاب، ويخفف المواجع ويلوّن مساحات الهيام ومعه تنتشي الخلايا، إنه وطنها الجزائر الشيء الوحيد الثابت فيها فهو حاجتها وجنونها، تحتضنه بوجهها المطل كنهار رائع فتشتعل عندها لحظة الحماس المنسجمة التي تعبر بها بكل التعابير وهي فوق حلبة الملاكمة فهناك تبرز فصول ونقاط الحصاد .

بعد سلسلة انجازاتها المبهرة والمتواصلة، تأهلت إيمان إلى الألعاب الأوليمبية بطوكيو، كان حلما لم تتصور يوما أنها ستبلغه، لكن إيمانها بقدرتها الفنية وثقتها الكبيرة في امكانياتها البدنية جعلها تحققه، لكن المفارقة أن الحلم تحقق في فترة عانى فيها العالم من وباء كوفيد 19 الذي فرض قيودا على التحضيرات وحصرها في أماكن معينة، وكان السفر خارج الوطن مقننا وهذا ما جعلها تحتل الرتبة الخامسة في البطولة لم يفشلها هذا الظرف الطارئ والحساس بل زادها خبرة ورفع معنوياتها أكثر حيث ازدادت الرغبة فيها للتأهل ثانية والمشاركة في الألعاب الأوليمبية بعدما لمست الحماسة و روح التنافسية عند كل رياضي ورياضية، قررت أن تعمل أكثر لضمان التأهل للألعاب الأوليمبية بباريس 2024 ممثلة للجزائر في رياضة الملاكمة، ويحل اليوم الموعود وتلتقي فوق الحلبة بمنافسة الأولى أنجيلا كريني الإيطالية، التي انسحبت باكية بعد 46 ثانية إثر تلقيها لكمة قوية، حسمت إيمان النزال ولكنها لم تحسم الجدل المثار حولها أخذت ترقب منافستها وهي تبكي مرددة ما سمعته من إشاعات مغرضة فقط لتبرر

هزيمتها وما زاد الأمر سوءا دخول رئيسة الوزراء الإيطالية جورجيا ميلوني على الخط في حملة التشكيك في الملاكمة إيمان.

كان حدثا غير مألوف في الدورات للرياضية العالمية، ادعاءات سخيفة وأكاذيب غير مؤسسة جاءت في إطار حملة تنمر شعواء انضم إليها المرشح للرئاسة الأمريكية دونالد ترامب خلال كلمته في تجمع شعبي لحملته الانتخابية، وكاتبة سلسلة هاري بوتر جوان كاثلين رولينج لتحطيم الملاكمة إيمان، ولكن وقفة الشعب الجزائري والعربي كان خير سند لها، بعدما اتضح أن ما تعرضت له يدخل في خانة الحسابات السياسية، حين أرادت بعض الأطراف الدولية إدماجها بالرياضة لإفراغ شحنة حقدهم بعد إخفاقاتهم السابقة في العديد من القضايا الدولية، عرفت إيمان أنها حرب شرسة، مما زادها قوة وإيمانا لأن الحرب الإعلامية ليست ضدها فقط، بل ضد بلدها، وما منحها الشجاعة هي تلك الوقفة التضامنية من أهلها وشعبها وهبة وطنها على كل المستويات إلى جانبها في هذا المحفل العالمي، أيقنت من أنها ليست وحدها وأن القضية أكبر من شخصها، شاهدت دفاع والدها بالأوراق الثبوتية عارضا شهادة ميلادها مولودة كأنثى، وفرحة أمها بها هدية الله تعالى لها غفت في أحضانها كعصفورة آمنة، كالورد والريحان يعبق منها رحيق الأنوثة في عينيها تزهر كل الألوان، تسطع عيناها كقنديل على أبواب الشقاء لتخفف تعبها، لقد أسعدت أيامها، كان يوم ميلادها سراجا أضاء فوانيس العمر المظلمة، ابتهجت إيمان بسماع كلمات والدها، وانتشت روحها بتشجيع رئيس دولتها عبد المجيد تبون، وبكل من أحبها داخل الوطن، كفكفت دموعها وألقت أحزانها وراء ظهرها غير مبالية، اليوم هي تمثل الوطن والعلم بالصبر والروح الرياضية في الاحتواء الهادئ والاستيعاب الواعي للأحداث، من خلال ما سجلته الصورة وعكسته المواقف.

وواصلت تحديها في مقابلتها الثانية، أمام الملاكمة المجرية لوكاهاموري بكل عزم وإيمان بالفوز، تغاضت عن إساءتها لها عندما صورتها كالوحش على صفحتها الرسمية، وكانت نهايتها هزيمة مذلة على الحلبة وليس في مواقع التواصل الاجتماعي، وبالفعل ردت إيمان على كل من حاول احتقارها أو التنمر عليها بالبذاءات والكلام المسيء، وبالغت مختلف وسائل الإعلام الغربية والصحافة العالمية والأوساط الحقوقية والدبلوماسية الغربية في الإساءة إليها، ومحاولة النيل السافر من كرامتها، لامست المواقف حدود العنصرية القميئة، وتداولت أروقة منظمة الأمم

المتحدة طبيعة الاتهامات المتبادلة، بعد أن اتهم نائب مندوب روسيا لدى الأمم المتحدة بوليانسكي الجزائر بإشراك رجل بمنافسة الملاكمة في أولمبياد باريس 2024 في الدورة النسائية ! . . كان الرد الجزائري على لسان الدبلوماسي توفيق كودري الذي عبر بشدة عن رفضه لهذه التصريحات مؤكدا أن الملاكمة إيمان خليف ولدت وعاشت أنثى، إنها رياضية وبطلة مارست الرياضة بكل المقاييس وأنه لا يوجد أدني شك من ذلك، إلا من له أجندة سياسية مجهولة المقاصد، وعليه تم إحالة الأمر إلى اللجنة الأوليمبية الدولية التي أعلنت بكل وضوح شهادتها التي أخرصت الجميع، نظرت إيمان بكل شجاعة إلى كل من حولها متسائلة في عجب! . . إن كانت هي القروية القادمة من منطقة نائية قد قلبت العالم رأسا على عقب، وهي بائعة الخبز على الطريق من تقف أمريكا وروسيا وأوروبا في وجهها.

خلال لحظات الراحة، جلست منزوية في منآى عن أعين الصحفيين والرياضيين، وهي تتفحص متعجبة عبر هاتفها أخبارها التي ملأت العالم، وكأن كل أخبار العالم توقفت وكل القضايا الدولية انتهت والحروب هدأت، ولم يبق فوق الكرة الأرضية إلا قضيتها، أغلقت هاتفها وأخذت ترقب من حولها وتتبع خلسة حركاتهم وسكناتهم وتعابيرهم المريبة، صادفها مدربها المخلص وبادرها ناصحا أن لا تبحث في السلبيات حولها، الناس تبحث في أي شيء وبحثهم مرضي عنصري، تشكيكي، تراهم يتحدثون عن النجاح والإبداع والجو الرائع الذي يعيشونه، وبعد ذلك تنبري أقلامهم السوداء على بياض الأوراق الجميلة تنثر السموم لتلطخ البياض، لذلك علينا أن نجدد الأمل بكل إيجابية ونتحكم في الانفعالات، على وقع هذه الكلمات استجمعت إيمان إرادة التحدي، واستجمعت زمام نفسها مجددة العزم لتملك السيطرة على مجرى حياتها.

في كل مقابلة على حلبة الملاكمة يتلاقى الخصمان، وكل منهما يثخن الآخر بالضربات واللكمات ما أرادت قوله، ماضيه وحاضره وربما مستقبله دون تردد أو التفت لتفاهاتهم، لديها نهجها كعربية ومسلمة ولها واقع تعيشه، فقط عندما تنظر لكل من أحبها من كل أنحاء العالم وإلى من ألّف الأشعار من أجلها وأطرب بالأغاني مسامعها، وإلى كل من تتبعها مهتما بأخبارها، عليها أن تتهيأ جيدا فلاتزال هناك منازلات أخرى تنتظرها على الحلبة، وهناك يكون الانتقام. أجرت إيمان مقابلتها الثالثة مع الملاكمة التايلاندية وفازت فوزا عظيما، ومنها تأهلت للمباراة النهائية. كان كلما اقترب موعد المنازلة زادت حدة حملة التنمر ضدها، فما زادها إلا عزيمة

وإصرارا أكبر، فقد أصبحت على بعد خطوة من تحقيق هدفها، وتعلم أنهم يحاولون النيل من معنوياتها بتشويه صورتها والحقائق بكل الطرق المشبوهة حتى تلك التي تنال من شرفها وتسيء إلى كرامتها بغرض تحطيمها.

أدركت وفهمت أنها لعبة سياسية قذرة لدول توصف بالعظمى، يتلونون ويغيرون جلدهم كالثعابين وقتما شاءوا وكيفما أرادوا، قوة خفية تحرك الحماسة في نفسها وتجدد إرادة التحدي في قلبها، ودمائها الحارة المتدفقة تأبى عليها أن تكون فريسة، لن ينفعهم ما خططوا له، لن يمنعوها من الوصول إلى هدفها، إنها من أمة راضية بما قسمه الله تعالى لها، تؤمن بأن أخلاقها تسطر درب حياتها حتى لو مشته حافية فوق الأشواك، أمة لا تفرط في مبادئها، عزمت أن يكون ردها الوحيد فوق الحلبة، وكان لها ما أرادت، انتصار مشرف على منافستها الصينية، وحققت حلمها بالفوز بسموها على الصغائر وترفعها عن البذاءات، وبوعيها وحبها وولائها لوطنها الجزائر الحبيبة.

إن ما حققته كان ردا لجميل بلدها، الذي ألبسها ثوب العز وكساها بالكرامة وحباها بالعافية والخير والأمان، لقد صوبت بوصلة العطاء نحو الوطن والهوية والعرق الإنساني، وأنشد النشيد الوطني " قسما "وعيناها لا تفارقان علم بلادها يرتفع أمامها، لقد ردت الاعتبار لنفسها ولبلدها بالعمل، وبالإيمان والإرادة..

..... ❖❖❖❖❖ .....